المقدمة

كانت ميد جالسة في شرفة منزلها الممتد فوق نهر سيبيك في غينيا الجديدة، ذلك المنزل المبني على أعمدة خشبية مغروسة في الوحل أسفل المنزل، عندما اصطدم تمساح بعمود من الأعمدة أثناء عبوره تحت البيت. اهتز البناء بأكمله متسبباً بسقوط الفناجين على الأرض وخروج أقلام الرصاص عبر التشققات إلى الماء. كانت التماسيح والعقارب والأفاعي السامة مخيفة ولكن عدم ثبات البيت الذي كانت تسكن فيه ميد كان بمثابة المشكلة الأكبر. وكان سكان إياتمول يأتون لهذا المنزل كل يوم طلباً للدواء أو المتاجرة بالتبغ أو فقط لمجرد الزيارة. وفي هذا اليوم تحديداً كانت مارغريت كما كان السكان يدعونها ترفّهُ عن الرجال والنساء والأطفال في إياتمول الذين كانوا يرتدون ملابس بسيطة لكنها أنيقة. ولقد وصفتهم مارغريت في موضوع كتبته عن وضع المرأة كعالمة إنسان قائلة:

obeikandl.com

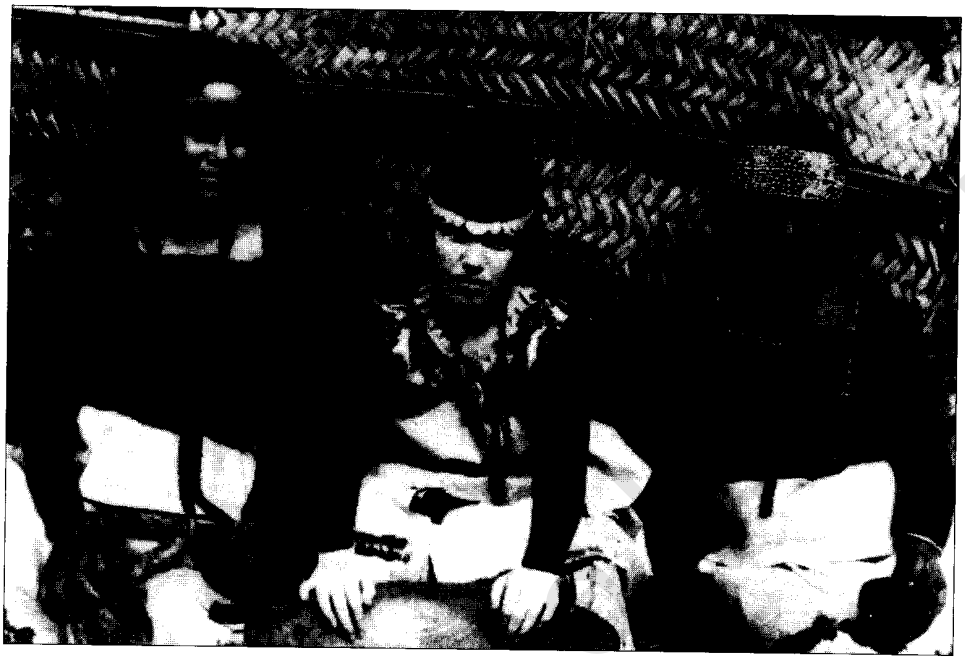

مارغريت ميد تلتقط صورة مع قرويات صغيرات في السن في ساموا سنة 1925. فهي حين تتواجد في ميدان تنغمس في الثقافة التي تدرسها حتى تتمكن من فهمها وفهم ما يحيط بها بشكل أفضل.

«كانوا أناساً مرحين وأقوياء، لكنهم كانوا غير مسؤولين وكانوا دائماً إما يضحكون أو يصرخون بغضب» وقد كانت مارغريت منخرطة بشكل دائم ومكثف بمحادثتهم باللغة الإياتمولية، وكانت كما هو حالها دائماً تدون ملاحظاتها لما يدور حولها.

وفجأة، لمحت ميد من بعيد قارباً صغيراً يتم سحبه إلى ضفة النهر وقد خرج عدد من الرجال البيض منه وتحركوا ببطء تجاه الطريق إلى القرية. تساءلت ميد في نفسها إن كانت تعرفهم فقد رأتهم بلا ملامح وكأنهم أناس غير حقيقيين كالدمى الورقية. وبعد أن تعرفت عليهم أخذت تنتقل بعقلها لفهم لغتهم الإنجليزية، فقد استوطن الإيتامولیون في وجدانها ووعيها، بعد أن عاشت معهم

لعدة أسابيع، لذلك بدا لها هؤلاء بمظهرهم السطحي الاعتيادي مثل الدمى الورقية. كتبت ميد لاحقاً أن خبرة الباحث الميداني تتجلى بأن ينتقل جيئة وذهاباً بين الثقافات واللغات بشكل مفاجئ، وبعد انغماس عميق؛ مما يجعل هذه النقلة المفاجئة انقلاباً فيزيائياً.

مارغريت ميد عالمة الإنسان الأمريكية التي قضت حياتها في دراسة الشعوب الذين يعيشون على الجزر البعيدة في المحيط الهادئ، ذهبت إلى ساموا وإلى غينيا الجديدة مرات عدة؛ حيث درست خمسة شعوب منفصلة، هم: المانوس والأرابيش والمندوجومر والتشامبولي والإتامول. وذهبت كذلك إلى بالي لدراسة سكانها، وقد قامت بذلك لأنها أرادت دراسة حياة الشعوب الأخرى وعلى وجه الخصوص أولئك الذين كان اتصالهم بالحضارة الغربية لا يزال ضعيفاً.

على الرغم من أنها كانت تحب إعطاء النصائح، إلا أنها لم تذهب إليهم لتملي عليهم ما ينبغي أن يقوموا به، بل لترى كيف يمكن لمجتمعها أن يتعلم منهم. فلدى عودتها إلى الولايات المتحدة الأمريكية، علّمت الأمريكيين أن يتساءلوا عما كانوا لا يسألون عنه أبداً من قبل. وذلك لاعتقادهم بأن أسلوبهم في القيام بالأشياء هو الأفضل بلا جدال. تحدثت ميد عن الاستعلاء المزعوم لثقافتها متجرئة على الخوض في أهم القضايا التي تمس الأمريكيين. ومن أهم هذه القضايا: بنية العائلة، وموقف

obeikandl.com

الأمريكيين حيال الأخلاق، والطرق المتبعة في تربية الأبناء.

ذاع صيت مارغريت بعد صدور كتابها الأول: «سن الرشد في ساموا». وكان عملها الأكثر إثارة للجدل. وقد أثار هذا الكتاب الذي صدر عام 1928 خيال عامة الشعب الأمريكي تماماً كما فعلت رحلة تشارلز ليندبيرغ الأولى عبر الأطلسي في السنة التي قبلها. جسدت رحلة ليندبيرغ الجريئة التي قام بها بمفرده للعالم بأسره إمكانيات السفر جواً. أما رحلة مارغريت ميد بمفردها إلى جزيرة نائية في المحيط الهادئ، فقد أظهرت إمكانية تحلي امرأة شابة بالقدر نفسه من المغامرة التي أظهرها ليندبيرغ. وحقق كتابها «سن الرشد في ساموا» أفضل المبيعات، وجسَّد كيفية وجود أساليب مختلفة ليحيا الإنسان بها حياته. وهكذا غيّر كلٌ من هذين المغامرين الطريقة التي نفكر فيها وننظر فيها إلى العالم من حولنا.

obeikandl.com